سلسلة تفريغات شبكة بينونة

@Baynoonanet
www.baynoona.net

مكانة العلماء

الشيخ د. محمد بن غالب العمري
حفظه الله

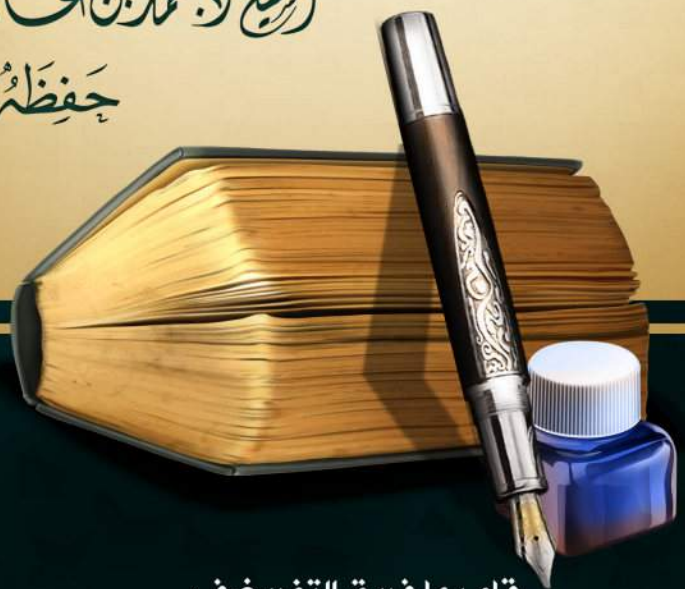

قام بها فريق التفريغ في
شبكة بينونة للعلوم الشرعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يسر شبكة بينونة للعلوم الشرعية
أن تقدم لكم تفريغا لمحاضرة بعنوان

"مكانة العلماء"

ألقاها الشيخ
د. محمد بن غالب العمري
حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى

نَسْأَلُ اللَّهَ – سُبْحَانهُ وَتُعَالَى- أَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْجَمِيعُ

قام بها فريق التفريغ
بشبكةُ بِينُونَةِ لِلْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ

حُقوق الطَّبْعِ مَحْفُوظَةَ

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ][آل عمران:102].

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا][النساء:1].

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا][الأحزاب:70-71] أما بعد:

فإن أصدق الكلام كتاب الله جلّ وعلا، وخير الهدي هدي محمدٌ عليه الصلاة والسلام، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثةٌ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، أما بعد:

فنلتقي هذه الليلة في ما رأيتم من عنوان هذه الكلمة وهي:

مكانة العلماء

إن هذا الموضوع وهو الكلام عن مكانة العلماء هو من الأهمية بمكان؛ ذلك لأمورٍ عديدة، منها مكانة أهل العلم، وحاجة الناس إليهم، ومنها لمكانة العلم الذي يحملونه، وأحْبَبْت قبل أنْ أتكلم عن بعض الفقرات المتعلقة بهذه الكلمة أن أذكر كلامًا ماتعًا للإمام الآجري رحمه الله في كتابه أخلاق العلماء.

قال رحمه الله: "**فإن الله عز وجل وتقدست أسماؤه اختص من خلقه من أحب فهداهم للإيمان، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب فتفضّل عليهم، فعلّمهم الكتاب والحكمة وفقّههم في الدين، وعلّمهم التأويل، فضّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمانٍ وأوان، رفعهم بالعلم وزيّنهم بالحلم، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح، فضلهم عظيم، وخطرهم جزيل، ورثة الأنبياء، وقرّة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في يوم القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُبّاد، وأعلى درجة من الزُهّاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يُذكّرون الغافل، ويعلّمون الجاهل، لا يُتوقع لهم بائقة، ولا يُخاف منهم**

غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصّرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على من خالف بقولهم محجاج، الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عَنَدْ، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتُبه عليه حتى وقف فيه فبقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدر" إلى آخر كلامه رحمه الله.

هذه المقدمة الماتعة لهذا الإمام الجليل تُبيّن مكانة العلماء، وتلخّص شيئًا من فضلهم ومكانتهم، وعظيم ما امتن الله جل وعلا به عليهم، إنّ فضل العلماء وبيان مكانتهم أمرٌ توافرت في الدلالة عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، ومن أقوال أهل العلم والإيمان من سلف هذه الأمة، فجاءت آياتٌ كثيرة تدل على عظيم فضلهم وجليل منزلتهم وكريم مكانهم، نذْكُرُ بعض ذلك في مثل هذه العجالة، وإلا فإنّ حصر الأدلة التي تدل على فضل العلماء سواءً من الكتاب أو السنة أمرٌ يحتاج إلى جُهْدٍ وإلى وقتٍ، وحسبنا في هذا أن يُذكر شيءٌ مما جاء في فضلهم، إلّا فإن فضائلهم معلومةٌ ظاهرة واضحة جلية وإنما هو التذكير.

الله جل وعلا قال في كتابه الكريم: [**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ**][آل عمران:18] هذه الآية العظيمة قارن الله جل وعلا شهادة العلماء بشهادة ملائكته على وحدته، وما فعل ذلك إلا

لعظيم منزلة العلماء، ولذا قال ابن القيم رحمه الله: وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

- أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.
- والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.
- والثالث: اقتران شهادتهم بشهادة الملائكة.
- والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله تعالى لا يستشهد من خلقه إلا العدول.

كذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى وهو يبيّن أنّه جل وعلا جعل لهم الإمامة في الدين، وذلك في قوله سبحانه: [**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**][السجدة:24]، فهذه الآية تدل أنّ الله جل وعلا اصطفى من عباده أئمةً يهدون –أي يدعون– إلى الله جل وعلا، ويَدُلّون الناس على مراضي الله سبحانه وتعالى، ويبيّنون لهم الحلال من الحرام، ويبيّنون لهم ما افترضه الله جل وعلا عليهم، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الدين كله علمٌ بالحق وعملٌ به، فالعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر" معلقًا على هذه الآية، وذلك في قوله جل وعلا: [**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا**

وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ][السجدة:24]، وأحقّ من يُذكر في هذه الآية أو من يدخل في هذه الآية هم أهل العلم الربّانيون.

من الأدلة كذلك: أن الله جل وعلا بيّن أن طاعتهم من طاعة الله جل وعلا ومن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال جل وعلا: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ] [النساء:59] قال أهل العلم: أولي الأمر هنا المراد به الأمراء والعلماء، وعلى هذا مذهب جمعٍ من الصحابة، منهم أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه وغيره من الصحابة أن المراد بأولي الأمر في هذه الآية: العلماء والأمراء.

كذلك مما يدل على فضلهم وعظيم مكانتهم: أن الله جل وعلا أمر بالرجوع إليهم، قال سبحانه وتعالى: [فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ][النحل:43] وقال جل وعلا: [وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ][النساء:83] فأمر الله جل وعلا إذا ما أشكل على الإنسان أمرٌ أن يرجع إلى أهل العلم يبيّنون له فيه الحق، ويوضّحون له ذلك بالدليل، ويشهدونه إلى ما فيه الصلاح والاستقامة.

كذلك مما يدل على مكانة العلماء وفضلهم: أن الله جل وعلا امتدحهم بأنهم أهل الخشية، قال جل وعلا: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ][فاطر:28] العلماء هم أهل الخشية، والعلماء هم أخشى الناس لله سبحانه وتعالى، ولذلك عندما قيل للإمام أحمد: ما النية في طلب العلم؟ قال: "خشية الله جل وعلا"، وأعظم من يحقق هذا الأمر هم أهل العلم، فهم أعلم الناس بشرع الله، وأعلم الناس بحق الله، وأعلم الناس بصفات الله وأسمائه، وأعلم الناس بعظم مكانة الخالق سبحانه وتعالى، فلذلك هم من امتنّ الله جل وعلا عليهم بهذا العلم فعبدوه حق عبادته، ووحّدوه حق توحيده، فكانوا أخشى الناس لله جل وعلا.

كذلك مما يدل على فضلهم: أن الله جل وعلا اصطفاهم بهذا العلم، وهذا من فضل الله جل وعلا، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء سبحانه وتعالى، ولذلك قال الله جل وعلا: [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ][البقرة:269] فبيّن في هذه الآية أن الله جل وعلا يؤتي الحكمة ومنها العلم من يشاء من عباده، ومن يُؤتى هذه الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فبيّن الله جل وعلا أنّ من اصطفاه ووفّقه لهذا العلم كان قد وُهِبَ من الخير الشيء الكثير، ثم بيّن في آخر الآية أنه ما يذكّر بمعرفة هذا الأمر إلا أولوا الألباب، وهم أهل العلم يدخلون في ذلك دخولًا أوّليّا.

ثم كذلك مما يدل على فضل أهل العلم: أنّهم ورثة الأنبياء، فقد جاء في الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: « وإنَّ الأنبياءَ ، لم

يُوَرِّثوا دينارًا ، ولا درهمًا ، إنما وَرّثوا العلمَ ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ »[1] فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الأنبياء لم يورّثوا الأموال، ولم يورّثوا متاع الدنيا، وإنما ورّثوا العلم، ثم بيّن عليه الصلاة والسلام أنّ من أخذ هذا العلم أخذهُ بحظٍّ وافر، بعد أن بيّن عليه الصلاة والسلام أن الوُرّاث الحقيقيين هم العلماء، هم ورّاث الأنبياء.

ولذا قال ابن القيم رحمه الله معلقًا على هذا الحديث: "هذا من كمال الأنبياء وعِظَمِ نُصْحِهِم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا ومُلْكَها، فحماهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتمّ الحماية، ثم لما كان الغالب على الناس أنّ أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده، سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيرًا من النفوس التي تقول: فلعلّه إنْ لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصّلها لولده، فقال صلى الله عليه وسلم: « **نحنُ معاشِرَ الأنبياءِ لا نُوَرَثُ ما تركناهُ صدقةٌ** »[2] فلم تُورّث الأنبياء دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورّثوا العلم" انتهى كلامه رحمه الله، فهذا مما يدل على فضل العلماء وعظيم مكانتهم.

---

[1] صحيح الجامع (6297).

[2] فتح القدير (456/3).

كذلك مما يدل على ذلك أنهم أفضل من العُبّاد كما مرّ معنا في كلام الإمام الآجري، كما دلّ على ذلك الأحاديث الصحيحة: « **فَضْلَ العالِمِ على العابدِ كفَضْلِ القمَرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكبِ** »[1].

ومما يدل على فضلهم: أن المخلوقات تستغفر له، إنّ العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، كما جاء بذلك الحديث الصحيح.

كذلك أهل العلم مما يدل على منزلتهم وعظيم فضلهم: أنهم مُكْرَمون في هذه الدنيا، بعيدون عن أسباب سَخَطِه سبحانه، جاء في الحديث: « **الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها ، إلَّا ذِكرُ اللَّهِ وما والاهُ ، وعالِمٌ ، أو متعلِّمٌ** »[2] والحديث عند الترمذي بسند حسن.

قال ابن القيم رحمه الله: "ولما كانت الدنيا حقيرةً عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة، كانت وما فيها في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة، وهو سبحانه إنما خلقها مزرعةً للآخرة، ومَعْبرًا إليها يتزوّد منها عبادة إليه، فلم يكن يقرّب منها إلا ما كان متضمنًا لإقامة ذكره، ومُفْضِيًا إلى محابّه، وهو العلم الذي به يُعرف الله، ويُعبد، ويُذكر، ويُثنى عليه، ويُمجّد، ولهذا خلقها وخلق أهلها".

---

[1] سنن أبي داود (3641).

[2] الترمذي (2322).

من فضائل العلماء أيضًا: أنّ الله جلّ وعلا حين وفّقهم لهذا العلم أراد بهم خيرًا، ففي الحديث في الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: « **مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ** »[1] وظاهر هذا الحديث ومفهومه أنّ من لم يرد الله به خيرًا لا يفقهه في الدين، فكان هذا من توفيق الله جل وعلا لأهل العلم ومن بيان عظيم منزلتهم، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولازم ذلك أنّ من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيرًا، فيكون التفقه في الدين فرضًا".

كذلك مما يدل على فضل العلم والعلماء: أنّ عمل العالم يبقى بعد موته، تجْري عليه الحسنات، ويَدُلّ على ذلك أدلةٌ كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «**من دعا إلى هدى كان له أجره وأجر من تبعه إلى يوم القيامة**» وكذلك في الحديث الصحيح أيضًا وفي صحيح مسلم: « **إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ** » وذكر منها: « **أو علمٍ ينتفعُ به** »[2] هذه بعض فضائلهم.

ومثل هذا المقام كما قلت لا يَتّسِعُ لذكر ذلك وإلا فبيان فضائلهم كثيرةٍ وافرة في الأدلة الشرعية بنصوص الكتاب والسنة، وعلى هذا مضى الصحابة رضي الله عنهم في تقرير فضل العلماء ومن بعدهم

---

[1] صحيح البخاري (71).

[2] صحيح مسلم (1631).

من أهل العلم والإيمان، ومن ذلك ما أخرجه الآجري في أخلاق العلماء عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّه قال: "**مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها**".

وما جاء أيضًا عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "عليكم بالعلم قبل أن يذهب فإنّ ذهاب العلم موت أهله" وهذا قد دلّ عليه ما جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «**إنَّ اللهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزِعُه من النَّاسِ . ولكن يقبِضُ العِلمَ بقبضِ العلماءِ . حتَّى إذا لم يَترُكْ عالمًا ، اتَّخذ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا ، فسُئِلوا فأفتَوْا بغيرِ علمٍ . فضلُّوا وأضلُّوا**»[1].

يقول كعب بن مالك تكملةً للأثر: "موت العالم نجمٌ طُمس، موت العالم كُسْرٌ لا يجبر، وثلمة لا تسد، قبلتي إذا لقيتهم، وضالّتي إذا لم ألقهم، لا خير في الناس إلا بهم".

ولذا جاء أيضًا عن العلماء كما قال الشافعي رحمه الله جاء عنهم تقرير مكانة العلماء، قال الشافعي رحمه الله: "**العلماء كالشمس للدنيا، وكالعافية للأبدان**" وجاء نحوه عن الإمام أحمد رحمه الله، هذه بعض فضائلهم وبيان منزلتهم، وإلا فقد بيّن العلماء أنّ من عقيدة أهل السنة والجماعة أيضًا احترام العلماء، ولذلك قال العلامة ابن سعدي رحمه الله في

---

[1] صحيح مسلم (2673).

سياق كلامه عن عقيدة أهل السنة، قال: "**وأنّهم يدينون الله جل وعلا باحترام العلماء الهداة**" فهم يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى باحترام العلماء، وبمعرفة منزلتهم، وتعظيم حرمتهم، ولذا قال الحسن البصري رحمه الله: "**كانوا يقولون موت العالم ثُلْمَةٌ في الإسلام لا يسدها شيءٌ ما اختلف الليل والنهار**".

وجاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: "**لو أنّ فقيهًا على رأس الجبل لكان هو الجماعة**" فالفقيه الواحد إنْ كان على الحق وخالفه كل الناس فهو الجماعة، جاء رجلٌ إلى ابن المبارك رحمه الله وهو العالم الجليل الذي قال فيه الحافظ ابن حجر: "اجتمعت فيه خصال الخير كلها" جاءه رجلٌ فقال: "من الجماعة يا أبا عبد الرحمن؟" قال: "أبو حمزة السكري، وذلك لمكانته ولعظيم منزلته ولأنه عالم" ويدل على ذلك ما جاء عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: "الجماعة ما وافق الحق وإنْ كنت وحدك".

إنّ مما ينبغي التنبيه عليه بعد هذه المقدمة في سبيل منزلة العلماء، وعِظَمِ فضلهم، وجليل مكانتهم، أنّهم بشرٌ يُخْطئون ويصيبون، المجتهد منهم المصيب له أجران، والمجتهد المخطأ له أجرٌ واحد، فأمرهم يدور بين الأجر والأجرين، وفي كل ذلك خير، إنما الواجب اتجاه إصابة العلماء وموافقة الدليل الأخذ بقولهم، والواجب اتجاه الخطأ البيّن من أهل العلم أن

هذا الخطأ يُردّ وتُحفظ لهم المكانة، وتُحفظ لهم المنزلة، وهذا في أهل الاعتقاد الصحيح، أهل العلم من أهل السنة والجماعة، فليس كُلٌّ من قيل فيه عالمٌ فهو كذلك.

وأوّل الشروط بأنْ يكون فلانٌ من الناس عالمًا أنْ يكون على اعتقادٍ صحيح، وإذا ما ضلَّ في أبواب الاعتقاد فماذا يبقى لهم من قول عالم؟ ونرى أنّ الناس في هذا الزمان يتساهلون، وتجْري ألسنتهم بتفْخيم العبارات في حقِّ أُناسٍ لا يسْتحقّونها، فيقولون: الإمام فلان، ونرى أنه يفتي بفتاوى ضالة يعتذر فيها لبني الكفر، ويُقرّب فيها بين الأديان، ويُحرّم فيها في دين الله، ويرد النصوص الشرعية، ويُضعّف الأحاديث النبوية بالهوى، ثم تُطلق عليه مثل هذه الألقاب، فالناس في غفلةٍ عن هذا الأمر، وإنّما الواجب أن يُعرف من هم أهل العلم لتُعرف لهم المنزلة وتُعرف لهم المكانة، وأمّا من سلك سبيلهم وليس منهم فإنْ أخطأ فلا يُقبل له الخطأ ويُشنّع عليه ويُنْكر عليه؛ لأنه إنّما بنى هذا الأصل الذي أخطأ فيه على أصلٍ عنده انحرف به، وهذا هو مُحصّل كلام العلّامة البربهاري رحمه الله في شرح السنة، وتقريرات العلماء في ذلك واضحةٌ جليّة، ولذا كان الواجب أنّهُ إنْ أخطأ الصواب عالمٌ من أهل السنة والجماعة، من أهل الاعتقاد الصحيح والمنهج القويم فالواجب مع ردِّ الخطأ احترامُ مكانته ومعرفة منزلته.

إذًا من هنا يبقى الأمر في الكلام عن الواجب اتجاه أهل العلم، والواجب اتجاه من اصطفاهم الله جل وعلا بأمر الفقه في الدين، إذا كان يجب على المسلم اتجاه أخيه المسلم إحسان الظن به، فإنّ الواجب للعلماء من ذلك الحظُّ الأكبر، من إحسان الظَنِّ بهم، ومن حَمْلِ أقوالهم على خير المحامل وأفضلها، جاء عند أحمد في الزهد قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: "لا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من فِيْ امرئٍ مسلمٍ سوءًا وأنت تجدُ لها في الخير محملًا" فالواجب علينا إذا ما صدر أمرٌ من عالِمٍ لم يَتَّضِحْ فيه باب الخطأ، واستطعنا أن نحمل ذلك على محملٍ حسن فكان الواجب أن يحمل كلام العالم على خير المحامل، وليس في ذلك مُسْتَمْسِكٌ لمن قعّدوا قاعدة المجمل والمفصّل، فإنهم جعلوا الخطأ الظاهر الواضح مُجْملا، ثم ذهبوا إلى كلام العالم السليم فقالوا: هذا مُبيّنٌ ومُفصّل، فيُحمل مجمل كلام العالم على مُفصّله، وهذا الكلام غير سديد، بل الواجب أن يُبيّن الخطأ ويُرد وإن كان من العالم، وفي ذلك ضوابط في من هو الذي يرد، ومن هو الذي يبيّن، وطريقة الرد، وما الواجب اتجاه أهل العلم، وقد مرّ شيءٌ من ذلك وعن الأمر الذي لم يتضح خطأه، وإنّما صدر من العالم كلامٌ يحتاج إلى تفهيمٍ وتوضيح، وكان يحتمل الكلام الحق، فيُحْمل القول على أحسن المحامل.

كذلك من حقِّ أهل العلم أن يتَّهِم المرء نفسه وفهمه وذكاءه أمام العلماء، فإذا ما وقف لهم على تقرير مسألة فلا يُعامِل العالم معاملة رفيقه وصاحبه يَرُد قوله ويطعن في فهمه، بل عليه أن يراجع في ذلك كلام الأئمة، والنصوص الشرعية، فكم يخفى على طلاب العلم، يخفى عليهم كثيرٌ من العلم، وربما استنكروا شيئًا هو معلومٌ عند أهل العلم ومقرَّرٌ؛ فكان الواجب على طالب العلم أن يَتَّهِم فهمه وعلمه، وأن يتَّهِم حفظه أمام أهل العلم وأمام علمهم وأمام منزلتهم.

ولذا جراءة بعض طلاب العلم على العلماء بتسْفيههم أحيانًا وبالطّعْنِ فيهم أحيانًا أخرى كل ذلك من سوء الخلق ومن سيِّءِ الأفعال، فإنّ الله جل وعلا كما سبق في الآيات بيّن منزلتهم، فكان الواجب إذا وقف طالب العلم على خطأ فيعرض هذا على أهل العلم وينظر في تقريرات أهل العلم، فربّما تبيّن له أن ما ظنّهُ هو خطأ هو صوابٌ محض، وإنّما السقم في فهمه وفي علمه وفي إدراكه.

كذلك مما يجب اتجاه أهل العلم حُرْمَة الوقوع في أعراضهم، فإذا كان دم المسلم وماله وعرضه حرام، فالعلماء من أعظم ما ينبغي أن يُحترم لأنّ حرمتهم عظيمة، ولأنّ منزلتهم جليلة، فإذا كان المسلم ينبغي أن يُحفظ في ماله وعرضه ودمه فالعالم من باب أولى، كذلك من حقِّهِمْ علينا الرجوع إليهم، وأنْ لا يَصْدُر الإنسان إلا عن رأيهم وعن فهمهم، ومن

الواجب علينا اتجاههم كذلك معرفة مكانتهم وقدْرهم، الواجبات كثيرة اتجاه أهل العلم واتجاه حملة الفقه من علماء أهل السنة والجماعة، فينبغي على طالب العلم أن يحفظ لسانه من الوقوع في أعراضهم.

وقد قال ابن عساكر عبارةً عظيمة تَتابع عليها العلماء بالنقل، وهي قوله رحمه الله: "**لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، من وقع فيهم بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب**" وجاء عن ابن المبارك فيما ذكره الذهبي في السير: "من استخفّ بالعلماء ذهبت آخرته، من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ولا يعرف الفضل لأهل العلم إلا أهل العلم" أمّا الدُخلاء على العلم والمتطفلون في العلم فهؤلاء لا يُقبل منهم ولا يُنتظر أن يُجرّحوا في عالِمٍ، بل لا يُنتظر منهم أن يزكّوا عالِما، فكيف يُقبل جرْحُهُم في العالم.

إنّ من المسائل المهمة التي ينبغي ذكرها في مثل هذا المقام: ما هو الواجب على المسلم إذا ما اختلف أهل العلم؟ فإنّ من الأمور المقررة عند العلماء في المسائل الخلافية ما يكون الكلام فيها إنّما هو على وجهين:

إنْ كانت هذه المسائل أمورٌ اجتهادية: فلهذا العالم دليله، وللعالم الآخر دليله، فقد قال أهل العلم: لا إنكار في مسائل الاجتهاد بهذا الاعتبار.

أو إنّ العالم الأول بنى كلامه على غير دليلٍ قِياسًا على مسألة، والآخر كذلك لم يكن عنده دليل، وإنما غاية ما في هذه المسألة الاجتهاد دون ورود نصٍّ فيها، فكان الواجب في ذلك عدم الإنكار ما لم يكن أحد القوْلين معه دليل، وهو ما أراده أهل العلم بقولهم: إن قاعدة "لا إنكار في مسائل الخلاف" قاعدةٌ غير صحيحة، فقولهم: "لا إنكار في مسائل الخلاف" ليس كل خلافٍ ينبغي فيه الإنكار؛ فكثيرٌ من المسائل خالف فيها أُناسٌ مع ورود الأدلة الشرعية النصية في عين المسألة، فلا يُلتفت إلى الخلاف، ولذا قال القائل:

وليس كل خلافٌ جاء معتبرًا إلا خلافٌ له حظٌ من النظر

فما كان مبنى المسألة على دليلٍ وخالفه في ذلك رأيٌ أو قياسٌ فالأولى الأخذ بالنص، فلا خلاف مع نص وأتت هذه المسألة مبناها على نصٍّ ومن خالفك في ذلك بناها أيضًا على نص ولم يظهر أحقُّ القولين فإنّ هذه المسألة اجتهادية ينبغي احترام أهل العلم جميعًا فيها، ولذا قال النووي رحمه الله: "ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصًا أو إجماعًا أو قياسًا جليًّا".

وفي هذا الصدد يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإذا كان القول يخالف سنةً أو إجماعًا قديمًا وجب إنكاره وفاقاً، وإنْ لم يكن كذلك فإنّهُ يُنكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول المصيب واحد وهم عامة

السلف والفقهاء" انتهى كلامه، وهذا القول هو الصحيح: وهو أن المصيب واحد وأن الحق واحدٌ لا يتعدد، إذًا قاعدة "لا إنكار في مسائل الخلاف" قاعدةٌ غير صحيحة، وإنّما الواجب الإنكار لمن خالف الكتاب أو السنة أو الإجماع، وكما يقول شيخ الإسلام في أكثر من موطن: "**أنّ الميزان الذي توزن به أقوال الناس الكتاب والسنة والإجماع**".

كذلك من المسائل المهمة والتي لعلها تكون ختام هذه الكلمة: أنّ من القواعد المهمة التي ينبغي أن يقف عليها طالب العلم حِفْظًا لمكانة العلماء، ومَعْرِفَةً لما يحصل من خلاف أنّ هناك قواعد متينة واضحة قررها أهل العلم من أهل السنة والجماعة، ممّا يستطيع بها طالب العلم أن يقف على الحق وأن يعرف المصيب، من ذلك: ما يقع بين أهل العلم من جَرْحٍ أو تعديلٍ لفلانٍ من الناس، فإنه قد تقرر عند أهل العلم أنّ من علم حجةً على من لم يعلم، فكان الواجب الرجوع إلى من عنده علم ولقدر قرر العلماء قال ابن الصلاح في مقدمته: "**إذا اجتمع في شخصٍ اذا اجتمع في شخص جرح وتعديل فالجرح مقدم؛ لأن التعديل أو لأن المُعدّل يخبر عن ما ظهر عن حاله، والجارح يخبر عن باطنٍ خفي عن المعدل**" انتهى كلامه رحمه الله، فهذا بيانٌ منه، وهو موافقٌ لقاعدة أنّ من علم حجة على من لم يعلم.

ولذلك عندما وثّق الإمام أحمد أو عدّل ابن حميد الرازي، وكان قد ضعّفه جماعة من أهل العلم ومنهم ابن خزيمة فقيل له: إنّ أحمد يُوَثِّقه، فقال: "لو علم أحمد ما علمنا لما وثّقه" فهذه الأمور ينبغي التنبّه لها، وهي أنّ علم الجرح والتعديل عِلْمٌ ما زال مستمرًا لم ينقطع بعلم الرواية والبحث في حال الرواة، نعم لا يوجد الآن في عصرنا من يأتي بالسند فيُنْظر في حاله فيما يتعلق بالأحاديث النبوية؛ لأنّ هذه الأحاديث قد سُطّرت في كتب، وبُيّن الكثير من رجالات الحديث وصُنّفت في ذلك الكتب المختصّة: كتب الجرح والتعديل وكتب الرجال والطبقات، ولكنّ هذا العلم يحتاجه الإنسان في حياته اليومية، ويحتاجه في ما يمضي من كثير من أمور الحياة في القضاء وفي الشهادة وفي غير ذلك، فهو أمرٌ مستمر.

فينبغي على طالب العلم أن يعرف في مثل هذه المسائل لأهل العلم مكانتهم ومنزلتهم، فمن كان من أهل العلم من كان عارفًا بأسباب الجرح والتعديل، ومعروفٌ بصدق اللهجة، وقدّم الدليل على جرحه كان الواجب أن يُؤْخذ بقوله مع احترام من خالفه من علماء أهل السنة والجماعة، فإنّ ذلك ربّما خَفِي عليه، فلم يظهر له من الجرح ما ظهر لمن جرح، وأمّا الجرح بغير دليل فلا يَقْبَلُهُ عاقلٌ فضلًا على أن يقبله عالم، فليس كل من جرح أو جرّح بغير دليل وإن استخدم ألفاظ العلماء وإن نادى بمنهج السلف ولكنه غير صادق في جرحه ولم يُدلِّلْ على ما قام به

من جرح فإن هذا، أو أنه جرّح غيره بما ليس بمُجرّح فإن هذا لا يُقبل منه القول.

ولذلك ردّ أهل العلم على جراءة الحدادية بأصنافها وأشكالها وأقسامها وأسمائها لأنهم يتعدّون على أهل العلم وعلى حملة السنة وعلى كتب أهل العلم بالتحريق تارةً وبالتحذير أخرى، كل ذلك لأنّهم أولًا يجهلون حال من يتكلّموا عليه، ويتكلّمون بغير علم، بل ويجْرحون بما ليس بسببٍ للجرح، فلذلك لم يقبل أهل العلم أقوالهم، بل ردّوا عليهم وبيّنوا باطل مذهبهم وعظيم ما اقترفوا في دين الإسلام وفي حق الأئمة سواءً فيمن سبق الحافظ ابن حجر والنووي حين أفتوا هؤلاء بتحريق كتبهم وبتمزيقها، أو من تبعهم بعد ذلك وأشغل نفسه بالتحذير من أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

فكان الواجب علينا أن نعرف لأهل العلم منزلتهم، وأن الواجب على طالب العلم أن يُحكّم في ذلك الدليل الشرعي القاضي بإتباع أهل العلم، وأن يَرْجَعَ إلى العلماء إذا ما نزلت نازلة، وأنْ يهجر المجالس التي يُغتاب فيها أهل العلم من أهل السنة والجماعة الذين هم صمّام أمان لهذه الدعوة، وحملوا على أكتافهم هَمّها، وبلّغوا دين الله جل وعلا، فالناس جميعًا بحاجةٍ إلى العلماء، وبحاجةٍ إلى بيان العلماء ولولا العلماء ولولا أن الله جل وعلا هيّأهم لما عرف كثيرٌ من الناس الحلال والحرام.

أسأل الله جل وعلا أن يوفِّقنا للمنهج السديد في ذلك، وأن يوفقنا لسلوك مسلك العلماء، ولمعرفة منزلتهم، وعظيم قدرهم، إنه الولي على ذلك والقادر عليه، وأعتذر عن شيءٍ من الاقتضاب، وإلا فالموضوع يحتاج إلى كبير بسط، فاسأل الله جل وعلا أن يجعل ما تكلمنا به في موازين الحسنات، وأن يغفر لنا الزلل، إنه الولي على ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

للاستماع إلى المحاضرة يرجى زيارة الرابط

http://www.baynoona.net/ar/audio/1058

شبكة بينونة للعلوم الشرعية

سُجلت : 2015 /01/09
فُرِّغت : 2017/12 /11

تمت بحمد الله

شبكة بينونة للعلوم الشرعية